على خزان أسوان

لحضرة الأستاذ أحمد محمد الحوفى

أشرقت الشمس هادئة فاترة ، ورخا الجو وندى كأنه أنفاس الربيع المتعطرة ، واتجه بنا الزورق السبوح إلى الخزان ، يغدو ويروح ، آنا يقذفه التيار كما يقذف الكرة لاعب بارع ، وحينا يخفق شراعه الهواء فيرجحن ، والموج يصفقه فيتناثر منه رذاذ يندى وجوهنا كنسمة فى بكرة ماطرة ، والسفن تتراءى فى الأفق كنعام بيض رفعت كل منها جناحها ، وهناك رمال دمثة تذهب التلال والربا ، وتعاريج الريح وآثار الأقدام توشيها باللحم والسدى.

وفى سفح التل شجيرات تنتثر ، تتهدل أفنانها إلى النهر الريان ، ظمأى إلى عذوبته ، حرى إلى لجته .

ووجه الماء يضحى للشمس فيترقرق سناه . ويصفقه النسيم العجلان فيرتعش ، ويتجعد ويتكسر ، كسطور فى رق منشور ، تروى أحاديث العصور تومض الآراد فى أثنائها ، وتتصافح الأشعة فى أحنائها ، تبترد فى عذوبة سلسالها .

وهذا هو الخزان . . .

الخزان العظيم المضطجع فى جوف الصحراء عن شرقيه وعن غربيه .

إنه السد المنيع الذى يعترض الماء الدافق فيصده ، ويحتجز النيل الهادر ويرده .

هيكل فى اللجة راقد ، يدفع الصحراء الآكلة عن معبود الفراعنة ، تذودها بيديه وقدميه .

يقظان للشمس ، أرقان مع النجم ، لا الكلال يعتريه ، ولا سافيات الرمال تؤذيه ، ولا هجمات الأمواج تبليه . ينبثق من فتحاته الماء فى قوة المدفع ، وهزيم الرعد ، وأعجب كيف لا يزلزل الأرض .

ينفجر من عيونه السيل مبيضا من شدة الضغط ، وقوة الدفع ، ناصعا كأنه قناطير من قطن منـدوف ؛ أو عهن أبيض منفوش ، أو أكداس من ريش منتوف ؛ أو كأنما هو رغوة من الصابون تطهر بها ملائكة السماء آثام الأرض .

ما أجمله فى رغوته !

ما أروع أقواس قزح على جبهته ! !

قد رسمتها أشعة الشمس المنكسرة على قطيرات الماء المتناثرة

أهبطت السماء بقوسها إلى الأرض ؟

أم هذه ألاعيب جن ، وتهاويل فن ؟

أم تلك أكاليل من ألوان الأزهار ضفرتها مصر على مفرق كل عين ؟ ؟

أم هى رمز إلى النبات المختلفـة ألوانه ، أرواه الخزان من مائه ، وأنبته النيل فى صحرائه ؟

ماء لا لون له ، وماء فيه زرقة ، وماء معتكر ، وماء فى صفاء الفل ، وكله يتمازج بين أيدى الفتحات فى مجرى رحيب كله صخور ودهاء .

وللماء الراعد موسيقى ، فيها قوة وفيها ترنيم

قوية ولـكنها لينة فى الأذن .

عالية ولـكنها لا تزعج .

على نغم رتيب بيد أنها لا تسأم .

هى ضجيج المعركة الدائرة بين القيد والحرية ، بين القوة والقوة ، بين السد والسيل .

أو هى قهقهة الماء الزاخر الظافر فى الملحمة .

أو هى طبول يقعقع عليها السد فى سمع الوادى كله ، إيذانا بأن الحياة تدب فى أوصاله .

من عيونك ياسد يتدفق الحياء والثراء ، والبركة والنماء ، والرفاهة والإخصاب .

ومنك يسرى هذا الروح الطيب الذى يخضل الوادى بجميل النبت ، ونضير الزهر ، ويفوف حفا فى النهر بطريف الزرع ولذيذ الثمر .

رفعت مصر سمكك لتنظم مهجتها ، فتأمن الشظف فاذا فاض النهر واجترف . أطلقت سدودك . وفككت قيودك لتأمن الغرق .

فى رحابك جمال وجلال وسمر .

ما أحيلى القمراء فى موسيقاك ، حيث توحى الطبيعة وتهدر أنت كأنما تصلصل للوحى ..

يخلو اليك الأجانب فى الأصائل والأسحار ، وبنو النيل فى غفلة عنك لا يقصدونك ، وإن رأوك عرضا لا يفقهونك ولا يستهلونك .

أنت ياسد أسوان معجزة الحياة فى أحضان الموت

أنت يا سد أسوان إبداع وقدرة

وأنت شهادة لهذا الإنسان بالقوة .

وأنت فيض من النماء والخير والحياة يغمر وادى النيل

أنت تزكية لعقل الإنسان ، وأعجوبة فنية فى هذا الزمان .

انت فن وبراعة وقوة وصبر .

ثم أنت فى النيل كالصمام من القلب .

* * *

هذا الخزان ينطق بعظمتك يانيل .

أنت فى مصر معين الحياة ، وأنت فى سرحتها سر النواة .

تفجرت فى الصحراء الجد باء ترعا وجداول وقنوات وروافع تبرد الظماء من الأناسى والأرضين والحيوان والنبات .

من ينكر أن مصر هبة منك من ينكر ؟ .

على عبريك نشأت المدن والقرى ، ومن فيضك أثرى الفراعين؛ وتفيئوا بظلال القرار ، ففكروا ، وأنشئوا ، وعمروا ، وسبقوا العالم كله بحضارة ما فتئت أعجوبة العجب ، ومفخرتنا نحن وراث الفراعنة والعرب ، ليت الفخر بالآباء يحفزنا إلى الجد والطلب والغلب .

تمشت حياك فى قلوب الأولين فعبدوك ، واحتفوا بوفائك ، وجعلوه عيدا يهزجون فيه بأهازيج البهجة ، وينشدون أناشيد الترحيب والغبطة وتقدير الجميل .

فى كوثرك راح يجذب الناهلين منك إلى القرار بواديك يوفون لك فلا يريمون عنك ، ومن حرم السقيا منك حينا غلبه الحنين إليك فتتمثل له فيتلظى على الوهم ، ويتذوق على الخيال ، ومايزال يحن اليك ويتشوق حتى يبرد شفته الظمأى من بَرُودك ، ويطعم من جنى خيراتك وجودك .

أنت فى الصحراء العبوس كالبسمة فى دجنات الكدر ، وحياة وجمال ترف بين هذا الصخر .

شهدت قيام الدولات وصراع الأمم ، وصفوت للأقوياء من أبنائك وكدرت للغزاة من أعدائك ، ونهضت على شطآنك حضارات على أنقاض حضارات ، فما تحيف ذلك من كبريائك ، ولا تنقص من ثرائك وسخائك

لاذ إبراهيم بذراك ، وخطر يوسف بين رباك ، واستاف موسى من رياك وسبحت مريم وعيسى على تحنانك ، وأصهر محمد إلى قطانك .

ياله من نهر ، ويالك من نهر ، تبارك من أجراك !

بهرت الأسطورة فقالت أنك من الجنة تنبع ، تجرى إلى الكادحين الصابرين تحمل المثوبة ماء ينقع ، وجنى يسمن ويشبع . وجمالا يخضو به الوادى ، ويعشوشب الشاطئ ، وموجا يحدر الفلك ، ونسيما رخيا ، ولحنا طريا ، وحضارة عرست على شطيك وشقشق من سناها فجر العالم .

خيرات وهبات هن إلى السماء أليق وألبق .

يا باهر الأساطير ، جل من سواك !

لكأنى بكل قطرة من نطافك العذاب تهتف اليوم :

لا تقربوا النيل ما لم تعملوا عملا

فماؤه العذب لم يخلق لكسلان .

أحمد محمد الحوفى

المدرس بالأميرة فوقية الثانوية